

القوى الدينية والسياسية في عُمان في عهد دولة اليعاربة

١٠٣٤-١١٦٢هـ/١٦٢٤-١٧٤٩م

فاروق عمر فوزي*

ملخص

كانت عُمان في حالة من الفوضى السياسية حين وصل اليعاربة إلى السلطة سنة ١٦٢٤م. فقد عانت الإمامة من انقسامات داخلية ولم تتجج في بلورة نظام لحكومة مركزية لجميع عُمان، كما استجابت لنفوذ شيوخ القبائل الذين اقتسموا السلطة معها. وحين آل الأمر إلى ظهور القبائل النبهانية غدت الحالة أسوأ بكثير عما كانت عليه. وهنا ظهرت الشخصية التي أنقذت عُمان من هذه الحالة، وهي شخصية الأمام ناصر بن مرشد اليعربي، الذي نجح في تحقيق قاعدة متوازنة من القبائل اليمانية والنزارية تسند حكمه. يتناول هذا البحث جهود الأئمة اليعاربة الأوائل في تطبيق النظام واجلاء البرتغاليين وتوحيد عُمان. ولكن في عهود الأئمة اليعاربة الأواخر وقع نزاع أسري على السلطة وأدى إلى انقسام أهل عُمان إلى كتلتين قبليتين متنافستين: الهناوية والغافرية، وهكذا تحول التنافس الأسري على السلطة إلى صراع مباشر بين شيوخ القبائل وعلماء الإباضية المؤيدة لهذا المرشح اليعربي أو ذاك. وقد أدت هذه الحالة إلى الاحتلال الفارسي لعُمان وبالتالي سقوط دولة اليعاربة سنة ١٧٤٩م. ولعلنا نخلص إلى القول بأن القوى الرئيسية المحركة للصراع على السلطة هي: الأسرة اليعربية الحاكمة وفقهاء الإباضية والقبيلة. وقد شكلت القبيلة العامل الأهم في تحريك الأحداث، ذلك لأن كلا الكتلتين الأخريين تحتاجان إلى دعم القبيلة ومساندتها.

الكلمات الدالة: اليعاربة، الإمامة، الهناوية، الغافرية، الإباضية.

المقدمة

المعروف أن الإسلام ومن بعده المذهب الإباضي نجح في أن يكون نقطة تجمع لغالبية أهل عُمان، إلا أننا نستدرك ونقول بأن السلطة السياسية للإمامة الإباضية لم تشمل إلا نادراً إقليم عُمان جميعه. ومعنى ذلك أن الأئمة الإباضية لم ينجحوا في بلورة نظام لحكومة مركزية لكل عُمان، كما وأنهم أذعنوا أحياناً للظروف المحيطة بهم، ولنفوذ القبائل، فتساهلوا في تطبيق المذهب الإباضي، فكان هناك فارق بين النظرية والتطبيق أو بين المثالية والواقع. وقد عارضت بعض الزعامات القبلية سلطة الإمامة واقتسمت النفوذ معها، بل أن بعض الأئمة أقصي من السلطة نتيجة تحالفات قبلية مختلفة. فالإمامة الإباضية إذن عانت من انقسامات داخلية، بالإضافة إلى حصر السلطة وراثياً في قبائل معينة مما أدى إلى ضعفها وظهور قوة القبائل النبهانية. وكان الحكم أسوأ بكثير في حقبة النباهنة

* أستاذ عراقي باحث في التاريخ، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية. تاريخ استلام البحث ٢٥/١٠/٢٠١٧م، وتاريخ قبوله للنشر

٢٣/١١/٢٠١٧م.

الذين ينعنهم الأزكوي بكونهم "ملوك" أهل جور وفساد وظلم وعناد، وساعدهم رؤساء القبائل. ويؤيد ابن رزيق الأزكوي فيرى أن ليس بينهم إمام ولا ملك عادل، بل أكثرهم أهل جور وظلم. وهكذا ظلت حالة الانقسام على ما هي عليه، وتقاسم عُمان النفوذ الإباضي والنبهاني وشاركتهم كذلك زعامات محلية أخرى مثل الهلالية والهنابية وآل عمير وغيرهم كثير.

تلك هي الحالة التي كانت عليها عُمان سنة ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م حين جاء اليعاربة إلى الحكم. على أن الشخصية التي أنقذت الإمامة من حالة التدهور وخلصت عُمان من الفوضى السياسية، ونجحت من خلال القوة تارة والمسايعي الحسنة "الدبلوماسية" تارة أخرى أن تبسط نفوذ الدولة على القسم الأكبر من عُمان، هي شخصية الإمام ناصر بن مرشد اليعربي. وفيما عدا تحقيق وحدة عُمان وشعبها فإن ناصر اليعربي حارب البرتغاليين وهاجم تحصيناتهم في مسقط وصور، محققاً نسبة من النجاح ضدهم، كما هاجم الفرس الذين احتلوا جلفار، وربما كان اتصاله المبكر بالإنجليز وإجراء مفاوضات معهم هدفه ضرب المتنافسين الأوروبيين (البرتغاليين والإنجليز) بعضهم ببعض لتكون عُمان هي الرابحة في نهاية المطاف. وفي الداخل ورغم كون اليعاربة يمانيين الأصل فقد نجح الإمام ناصر اليعربي في تحقيق قاعدة متوازنة تسند حكمه تتألف من اليمانية والنزارية على حد سواء، وقد مهدت إنجازاته إلى ظهور قوة بحرية عُمانية على عهد خلفائه من اليعاربة امتد نفوذها غرباً إلى أفريقيا، وشرقاً إلى جنوبي شرقي آسيا. ومن هنا فقد صورت المصادر التاريخية العُمانية الإمام ناصر اليعربي سنة ١٦٢٤ - ١٦٤٩م بصورة "البطل المنقذ"، وبرهن الإمام ناصر بكونه أهلاً للنقّة، وذلك بتحقيق العديد من آمال أهل عُمان قبل وفاته، ولعل المستشرق البريطاني باثيرست^(١) يُعطي صورة واضحة للجهود المضنية التي بذلها هذا الإمام أخذاً بنظر الاعتبار القوى الدينية - السياسية الفاعلة على المسرح السياسي العماني.

يقول باثيرست: "كانت الإمامة من أركان المجتمع العُماني منذ سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م، وقد وضعت موضع التطبيق خلال القرون التالية للقرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ولا بد لأي باحث في تاريخ عُمان أن يتناولها ويوضح تأثيرها مثلما يتناول تأثير القبيلة وتحالفاتها، والبحر وتجارته على أهل عُمان". ويبدو من استعراض جهود ناصر بن مرشد اليعربي من أجل قيام الإمامة من جديد مدى تأثير النفوذ القبلي في تلك الحقبة في توجيه السياسة، حيث يبدو من الروايات التاريخية أن انتخاب الإمام ليس كافياً في حد ذاته لضمان سيادة القانون والنظام. ويكمن العنصر الأساسي لاستعادة حكم الإمامة هو السيطرة بالقوة على عدد من المدن والمناطق المهمة في وسط عُمان كي تخضع الأحياء البعيدة الأخرى، وهنا لا بد من الحصول على دعم القبائل وهي مسألة كانت ضرورية وملحة.

وعوداً على بدء يبدو أن الصدمة التي طالت البرتغاليين بعد هزيمتهم وطردهم من هرمز سنة ١٠٣٥هـ / ١٦٢٢م على يد الصفويين والإنجليز، قد أثرت على موقف العُمانيين من النفوذ البرتغالي في سواحل عُمان. ذلك أن أهل عُمان شعروا أن الوقت قد حان لمجابهة البرتغاليين، وأن بمقدورهم طردهم من سواحل عُمان كما طردوا من هرمز.

(١) باثيرست، تاريخ اليعاربة في عُمان، مترجم، (رسالة دكتوراه، جامعة أكسفورد، بريطانيا، ١٩٦٧م).

Bathurst, R. D. The Ya'rubī Dynasty of Oman, Ph.D., Thesis, Oxford, 1967.

وإذا كانت هزيمة هرمز عاملاً مباشراً ساعد على إسراع العُمانيين للعمل على إقامة دولة اليعاربة وإعادة تثبيت الإمامة الإباضية، فإن هناك عوامل غير مباشرة أخرى عملت عملها في هذا الاتجاه، لعل منها: انعدام الأمن والاستقرار في "دولة" بني نبهان، وظهور "دول المدن" والإمارات المستقلة وأمراء الحرب خاصة بعد سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م، ووجود عدد من العلماء والفقهاء الذين قادوا المسيرة ضد النفوذ البرتغالي ونادوا بتوحيد عُمان كبديل لظاهرة الإمارات المستقلة في المدن العُمانية، وكان على رأسهم الشيخ خميس بن سعيد الشقصي الذين انتهزوا فرصة وفاة السلطان مالك بن أبي العرب اليعربي وحدوث فراغ سياسي في الرستاق، وأقدموا على اختيار الشخص المناسب وهو ناصر بن مرشد (حفيد مالك اليعربي)^(٢).

جهود الإمام ناصر لتوحيد عُمان:

كان من المهم بالنسبة للإمام ناصر السيطرة على قلعة نزوى أو بهلاء^(٣) من أجل استعادة السيطرة على احد المراكز التقليدية لحكم الإمامة في وسط عُمان، ثم يُستخدم أي منهما كقاعدة مركزية لحملاته، وكان النجاح في هذا الأمر يعتمد على تجميع قوات قوية على نحو كافٍ لهزيمة أو تهديد الملوك الإقليميين (المحليين) الأقوياء. كما أن مشكلة الحصول على دعم القبائل كانت ملحة، وكانت قبيلة ناصر، وهي اليعاربة، تستولي على قلاع نخل والرستاق، ولكنه كان مجبراً على استخدام القوة لفرض سيطرته عليهم. ومن الواضح أنه لم يتمكن من الاعتماد على أقاربه للحصول على الدعم. ومن المهم أيضاً أنه لم يتم تعيين أي فرد من قبيلة اليعاربة لحكم أي من المدن التي تم السيطرة عليها بعد ذلك. وكان هناك بديل هو السعي إلى الحصول على تأييد القبائل التي كانت، مثل اليعاربة، من أصول يمانية. ولكن الحروب القبلية خلال الحقبة النبهانية أظهرت أن هناك مرونة في التوازن السياسي اليماني/ النزارى. ورغم أن الإمام ربما كان قد تقارب مع القبائل اليمانية أولاً، فإنه لم يكن بالضرورة ليتمكن من الاعتماد على دعمهم لحملاته ضد القبائل النزارية، ناهيك عن القبائل ذات الأصول اليمانية، وكان يمكنه فقط مداينة زعماء القبائل من خلال منحهم مناصب لحكم مدن إقليمية تم الاستيلاء عليها. تقدم ناصر اليعربي في البداية صوب الرستاق، وبمساعدة رجال من قبائل اليحمد (يمانية) استولى ناصر على القلعة، وباستخدامها قاعدة له تمكن من السيطرة على وادي فراء، وبعد ذلك، بدأ حصاراً لقلعة (نخل) التي استسلمت له بعد أيام قليلة. ولكن ناصر لم يحصل على تأييد كل رجال القبائل اليعاربة، وعندما طُرد المحاصرون تم تعيين آل عليها^(٤). ولأن الموانئ الساحلية كانت في أيدي البرتغاليين، كان المجال الوحيد للتوسع الإضافي هو التوسع في الداخل، في وسط عُمان، وخاصة

(٢) الأزكوي، سرحان بن سعيد (ت ١٨م)، كشف الغمة، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ٣٦٥؛ باثيرست، تاريخ اليعاربة في عُمان، ص ٧٦.

(٣) للتعرف على مواقع بعض المدن والقلاع الواردة أسماؤها في هذه الدراسة ينظر الخريطة المرفقة.

(٤) ابن قيصر، عبدالله بن خلفان، (القرن ١١هـ/ ١٧م)، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، مخطوط في المتحف البريطاني، لندن، Add. 23. 343. pt. 1، ورقة ٤أ.

الجبل الأخضر، وهي منطقة كانت في أيدي قبيلة "بنو ريام"، وكان الطريق الذي يمكن أن تسلكه قوات ناصر لشَنْ حملة في وسط عُمان هو عبر أودية سمائل وبنو رواحة وحلفين، أي الطريق الرئيس الذي يفصل الحجر الغربية عن الحجر الشرقية. وكانت النقطة الرئيسة في وادي سمائل هي قرية سمائل الكبيرة التي كانت خلال هذه المدة في أيدي مانع بن سنان العميري. وكان مانع هو خليفة "عمير بن حمير العميري" الذي أدى دوراً كبيراً في هزيمة "النبهانيين". وكانت إزكي، وهي قرية مهمة تحتل موقعاً استراتيجياً مزدحمة إلى حد كبير، ومنذ مدة طويلة، بسكان من قبيلتي "بنو رواحة" و"بنو ريام". وفي وسط عُمان، كانت كل من بهلاء وبلاد سبت تخضع لسيطرة سيف بن محمد الهنائي، وقد كان سيف مسؤولاً على نحو جزئي عن هزيمة النبهانيين، وملاً إلى حد ما الفراغ الذي نتج عن سقوطهم من السلطة.

تلقى الإمام دعوة من سكان نزوى لمد نطاق سيطرته إليها، ولما كان الإمام قادراً على تأجيل الصراع مع "الملوك"، فقد قاد قوة من رجال القبائل اليحامدة مباشرة عبر الجبال إلى قرية الصمد (التي تقع على بعد ميلين إلى الشمال من نزوى). وقضى ليلة هناك، ولكنه عاد إلى الرستاق بسبب عدم تلقيه لأي تأكيد بالحصول على دعم من حامية القلعة^(٥).

ولكن عدم النجاح في السيطرة على نزوى لم يضر بهيبته، وقد زاره فيما بعد أحمد بن سليمان الرواحي ومبعوثون من ملك سمائل الذي عرض عليه حكم سمائل ومنطقة وادي بني رواحة. وليس معروفاً ما هي الشروط التي تضمنها العرض، ولكن من غير الوارد أن مانع بن سنان وبني رواحة كانوا مستعدين لقبول السيطرة التامة للإمامة اليعربية، ولم يكن هناك أي ذكر لقلاع سمائل أو عن استسلام وادي بني رواحة، أو عن تعيين ولاته، ولكن من الواضح من الروايات المتتابة أنه تم التوصل إلى نوع معين من الاتفاق مع مانع بن سنان. وبعد قبوله لعرضهم، تقدم ناصر صوب سمائل، يرافقه القاضي خميس ورجال قبيلة اليحامدة، وبعدما ترك بعضاً من رجاله مع مانع، واصل طريقه ومر على بني رواحة. وفي إزكي، قابله وساعده بعض أفراد المدينة، وواصل التقدم معهم صوب نزوى. وفي هذه المرة، قبل ناصر بترحاب من السكان، ودخل من غير أي مقاومة^(٦)، أما سبب تغيير سكان نزوى لموقفهم فهو غامض، وحسبما يمكن فهمه من الروايات شجع مانع ناصر على محاولة دخول نزوى، وربما كان السبب أن رهطاً من السكان كانوا رجالاً قبليين تابعين لمانع أو خاضعين له، وربما كانوا مبهورين بالنجاح الذي اكتسبه ناصر من خلال اجتيازه لوادي سمائل وصولاً إلى الداخل، وهو طريق التجارة الرئيس إلى الساحل، ولكن من الممكن أيضاً ألا يكون ناصر قد حقق السيطرة على نزوى بأكملها في ذلك الوقت. وكان ناصر قد تقدم إليها من الجنوب ومكث في (العقر)، جنوبي نزوى، بينما كانت محاولته السابقة من الشمال. ومع وجود قاعدة في العقير، كانت مركزاً للعديد من الأئمة السابقين، كان ناصر في وضع قوي يسمح بتأسيس حكومة إمامة في قلب الدولة. ولكن قبل أن يتمكن من فعل

(٥) المصدر نفسه، ورقة ١٥.

(٦) المصدر نفسه، ورقة ٦ أ.

ذلك، كان يتعين عليه التعامل مع تمرد لأسرة رئيسة في العقر، وهي أسرة "بنو بو سعيد"، ويبدو أن ناصر قد تلقى تحذيرًا مسبقًا عن نواياهم وتمكن من إبعادهم من نزوى قبل اندلاع أي قتال. وسعى أفراد أسرة "بنو بو سعيد" للجوء إلى عدوها الرئيس، سيف بن محمد الهنائي في بهلاء ومانع بن سنان في سمائل، اللذين نقضا اتفاقه مع الإمام بقبوله لاستضافتهم. وعرضت "منح"، التي تقع على بعد أميال قليلة من نزوى، الاستسلام له أيضًا، وهذا الأمر أسهم في تأمين عاصمة الإمامة^(٧). وكان ناصر يفرض سيطرته على الحصون، أو يدخل في تحالف مع الأشخاص الذين يسيطرون عليها، من ثلاث جهات من المنطقة الجبلية التي تشكل وسط عُمان. وبقي أن يتم إخضاع "بنو هناءة" في بهلاء وآل هلال بمواقعهم الحصينة المتعددة على طول جبال الحجر، وقبيلة الجبور أما بالنسبة لنجاحات ناصر التالية، فإنه تلقى عرضًا بالاستسلام من قبل سكان (سمد الشأن) على وهو الطريق الرئيس من الشرق إلى الباطنية، وأرسل ناصر جيشًا، تحت قيادة الشيخ مسعود بن رمضان، لفرض سيطرته على المدينة من ملكها "علي بن قطن الهلالي". وبعد ذلك قدم سكان إبراء، التي كان يحكمها محمد بن جيفر الهلالي، ولأهمهم لناصر، وهو ما أدى إلى استسلام المنطقة الشرقية بأكملها له. وفي منطقة الحجر الشرقية، كانت صور وقریات فقط هي المدن التي تركت خارج سيطرة ناصر، وفي أيدي البرتغاليين^(٨). وعلى نحو منطقي، كان الهدف التالي (بهلاء) فقط، وهي العاصمة السابقة للنبهانيين، التي كان يسيطر في الوقت ذاك "الملك" القوي سيف بن محمد. ولكن فشل هجوم شُنَّ على هذه المدينة عندما تعين على القوة التي أرسلت إلى المدينة العودة إلى نزوى بسبب الشقاق الذي حدث هناك^(٩). وربما كان هذا يمثل خطأً جيدًا لناصر لأنه بغض النظر عن اشتباكات الأولوية في الرستاق ونخل، كان قد حقق كل نجاحاته من غير اللجوء لخوض معارك ضارية. وكانت قلعة بهلاء، (وهي واحدة من أكبر القلاع في عُمان)، يسيطر عليها رجال كانوا قد خلفوا النبهانيين عليها. ولو كان قد شُنَّ هجوم غير ناجح في المرحلة تلك، لكانت الإمامة قد فشلت للسبب نفسه الذي تعرض له العديد من الأئمة الآخرين، وهو صعوبة هزيمة "الملوك" المحليين على أراضيهم الخاصة.

أما خطوته التالية، فكانت تجنب ناصر المعارضة في بهلاء حيث حشد قوة جديدة، سار بها إلى الظاهرة واستحوذ على وادي فداء، وبنى حصنًا هناك، وقد قرر سكان شمال ضنك منحه أول قاعدة له في الظاهرة، وبعد ذلك تجوّل في كل المناطق التي خضعت له، وعند وصوله إلى سمد الشأن، التحق به بعض من أشد المؤيدين الذين رحبوا به، وهم "بنو ريام" الذين سيطروا على الجبل الأخضر^(١٠). لقد أصبح بإمكان ناصر العربي الاعتماد على بني ريام في استخدام الطرق المارة عبر الجبل الأخضر للتعامل مع القبائل المعارضة له على الجانب الآخر من جبال الحجر الغربي. لقد امتدت سلطة الإمام ناصر إلى منطقة الحجر الشرقية بأكملها تقريبًا، كما أن سيطرته على وادي

(٧) المصدر نفسه، ورقة ٧.

(٨) المصدر نفسه، ورقة ٨ ب.

(٩) المصدر نفسه، ورقة ٨ أ.

(١٠) المصدر نفسه، ورقة ٨ أ - ٩ أ.

سمائل وسمد الشأن أمن له طريق الوصول إلى سهول الشرقية وجعلان، ومنحته سيطرته على (إبراء) السيطرة على عدة قرى قبلية من تلك المنطقة. وفي الحجر الغربي سيطر الإمام على نطاق الجبل حتى وادي ضنك باستثناء عبري وبهلاء. وفي الوقت الذي كان الإمام يفرض سيطرته على هذه المناطق خاصة الرستاق، ونخل، كان البرتغاليون مسيطرين على الموانئ في الساحل العُماني. لقد انحصرت المعارضة القبلية لحكمه في مجموعتين رئيسيتين، هما: آل هلال مع حلفائهم من قبيلة "جبور" و"آل الرئيس" و"بنو هناة" في منطقة بهلاء، ولم يكن مانع بن سنان العميري في سمائل مؤيداً للإمام بكل تأكيد، ولكنه لم يكن أيضاً خصماً فعالاً.

اتخذ أفراد قبيلة "آل هلال" الذين شردوا من المنطقة الشرقية موقفاً معادياً لناصر، وبعد جولته في الأقاليم التي كانت تحت سيطرة الإمامة، ذهب ناصر إلى الرستاق بصحبة أحد حلفائه، وهم "بنو ريام"، وكان لا يزال هناك عندما دخلت قوة هلالية يقودها ملك إبراء السابق محمد بن جيفر مدينة نخل، واستولى على المدينة بأكملها باستثناء القلعة. وجلبت هذه الغارة للهلاليين على منطقة لم يكن لهم أي نفوذ فيها، حلفاء جدد لمعسكر الإمام ناصر، وهم أفراد قبيلة المعولي، وكان تأييدهم مهماً لأنه سهل الطريق أمام الإمام ناصر لاستخدام وادي المعاول، وهو أحد طرق الوصول الرئيسة إلى الجبل الأخضر من الباطنة، وبمساعدة رجال قبيلتهم، سار الإمام إلى نخل وأوقف نشاط القوة الهلالية^(١١).

وفي ضنك العليا في الظاهرة جاء الشيخ خميس بن رويشد، إلى الإمام ناصر، وعرض عليه المساعدة في إخضاع الظاهرة. ولم يكن بمقدوره إلا أن يرحب بهذه المساعدة، وعندما كان قد حشد جيشاً وسار به إلى الصخيري، انضم إليه أيضاً أفراد من الصير ومجموعة من رجال قبيلة الدهاكي. مع كل هؤلاء الحلفاء، كان يمتلك فرصة حقيقية لإخضاع منطقة الصير، واستردادها من ملوك قبيلتي "آل الهلال" و"جبور". وكانت "آل هلال" قد جمعوا كل بدوهم وحضرهم معاً في حصن الغبي، وكانت هذه هي النقطة التي هاجمها الإمام أولاً، ولم يكن من الممكن الاستيلاء على الحصن، وبعد معركة قتل فيها أخوه جاعد، واصل سيره إلى عبري واستولى عليها من غير صعوبة^(١٢). وبعدها بيومين، عاد إلى الصخيري، واستأنف حصاره لحصن الغبي، واستولى عليه، وعين الشيخ خميس بن رويشد والياً عليه وعلى جواره.

ويبدو أن قرية "بات" التي كانت تستحوذ عليها قبيلة "جبور"، قد استسلمت في الوقت ذلك؛ لأن الإمام ناصر عين محمد بن سيف الحوقاني والياً عليها. وبعدها فرض سيطرته على عبري والغبي و"بات" في منطقة الصير، كان يمتلك اليد العليا، وكان قادراً على تفويض إخضاع بقية منطقة الظاهرة لاثنتين من الولاة، وعلى الجانب الجنوبي الشرقي من جبال الحجر الغربية، فقد بقي الجزء الشمالي الغربي من وادي ضنك وجيب من الأرض في منطقة مقنيات وبهلاء خارج سيطرة الإمامة.

(١١) المصدر نفسه، ورقة ٩ أ.

(١٢) ابن رزيق، حميد بن محمد، (ت ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م)، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين، مسقط، ٢٠٠١م، ص

ولكن الفئات البدوية من قبيلة "آل هلال" واصلت معارضتها للإمام، واتخذوا من منطقة الأفلاج في الصحراء القريبة من ضنك مقرًا لهم، واشتبكوا مع قوة يقودها اثنان من الولاة بالقرب من منطقة "الدير" وفقدوا إبل قائدهم قطن بن قطن وتم محاصرة حصن قطن بعد ذلك، ولكونه بدويًا حقيقيًا، فقد عرض تسليم الحصن إذا أُعيدت إبله إليه. وقُبِلَ عرضه، وعُيِّن قطن واليًا على البلدة، ووجّه الواليان قواتهما إلى مقنيات وشرعا في محاصرة معقل قبيلة "جبور" هناك، وتمكنت قبيلة جبور من حشد الدعم من "آل هلال" و"آل الريس"، ولكن بسبب الشقاق الذي كان موجودًا بينهم، مالت قوات الإغاثة إلى المهمة الأسهل لاستعادة "بات". وبسبب ندرة إمدادات المياه ونفاذها، غادرت الحامية الموجودة هناك مقنيات، وفاجأوا حلفاء العدو وهزمهم في المعركة. وبعد تخليهم عن مقنيات، أعاد الإمام قواته صوب بهلاء حيث أصبح سيف بن محمد و"بنو راحة" معزولين بفعل نجاحات الإمام في منطقة الصير. ومر شهران من الحصار قبل أن يتلقى سيف أي مساعدة من حلفائه، بعد ذلك تعرضت قوة الإغاثة التي أرسلتها قبيلة "جبور" لهزيمة ساحقة في معركة مع جيش الإمام. ولم تأت المزيد من المساعدة، ولهذا كان يجب تسليم الحصن، وسمح لسيف وأتباعه بمغادرة الحصن بسلام رغم أنهم لم يتعرضوا للهزيمة على الإطلاق، وترجعوا إلى بلاد سبت ليشروعوا في بناء حصن آخر^(١٣).

وبقيت سمائل المدينة الكبرى الوحيدة التي لم تخضع لسيطرة الإمام المباشرة، وعندها سير جيشه إلى هناك، واستسلم مانع بن سنان فورًا، والتمس أن يبقى في القلعة، ووعد بأن يكون مخلصًا في المستقبل. ووافق الإمام على ذلك، ولكن بسبب افتقاده لتأييد الأهالي في منطقة طولها سبعة أميال، أعاد الإمام ناصر بناء القلعة القديمة وعين واليًا من أجل الاستمرار في مراقبة آل عمير. وفي منطقة الصير، كان لا يزال يتعين أن يخضع مقنيات، وعلى الرغم من الاستحواذ عليها بعد حصار استمر ثلاثة أشهر، لم تكن المنطقة محصنة على نحو كامل^(١٤).

وبعد مراسلات بين قبيلة "جبور" وبعض المعارضين الآخرين للإمام، دخل سعيد الخيالي ورجال قبيلته^(١٥) وقبيلة "جبور" مدينة الصخبري، وهنالك قتلوا رجالًا من قبيلة الدهاكي وعدد كبير من جنود الإمام. وعندما وصل جيش الإمام، أجبر الجيش على الاحتباء بحصن الغبي، وحاصرت قبيلة "جبور" الحصن، وعلى مدار عدة معارك خلال الأيام القليلة التالية، أصبحت المنطقة بأكملها متورطة في صراع قبلي، وكان يمكن أن يعاني الإمام هزيمة خطيرة هناك لولا وجود الوالي الجديد لمقنيات محمد بن علي، الذي حشد قوة، وتقدم بها نحو مقاتلي قبيلة "جبور" الذين لم يكونوا على دراية بتقدمها، وهزمهم وشتتهم. وهرب بعضهم إلى الصحراء، ولجأ آخرون إلى ينقل لدى ملك هلاكي آخر، وهو ناصر بن قطن^(١٦).

وكانت انتكاسة الإمام خطيرة حيث ثار عليه مانع بن سنان وبالتعاون مع سيف بن محمد الهنائي

(١٣) ابن قيسر، سيرة الإمام ناصر، ورقه ٩ - ١١.

(١٤) المصدر نفسه، ورقه ١١ - ١٤.

(١٥) المصدر نفسه، ورقه ١٤ - ١٥.

(١٦) المصدر نفسه، ورقه ١٥ - ١٦.

وحشدا قوة ودخلا إلى نزوى واستوليا على حي العقر، وحاصروا الإمام في القلعة، وعندما أوشك الجدار على الاختراق، وصلت قوة إغاثة من "بنو ريام" ورجال المدن من إزكي وبهلاء، وقتلت عدداً كبيراً من قوة آل عميري/ الهنائي وتفرق البقية. ولم يعد الإمام يتحمل مشكلات مانع؛ لذا أرسل قوة إلى سمائل من أجل تسوية القلعة بالأرض. وهرب مانع إلى فنجا، ولكن سكان المدينة لم يعترفوا به، وبعد قضائه وقتاً قصيراً مع البرتغاليين في مسقط، غادر المدينة متجهاً صوب لوى بالقرب من صحار. وهناك انضم إلى عدو آخر من أعداء الإمام، وهو محمد بن جيفر الهلالي، الذي كان قد استولى على تلك المدينة^(١٧).

وفي بلاد سبت، كان سيف بن محمد الهنائي، قد انتهى من بناء قلعته، ولكنه هرب فوراً، وأرسل الإمام قوة لكي تتعقبه، وعندها سعى في ما بعد للحصول على عفو من الإمام، استسلمت بقية القبائل في وسط عُمان أيضاً، ومع هزيمة آخر "ملك" قوي كان لدى ناصر الوقت الكافي لاستكمال عملية إخضاع منطقة الظاهرة، من أجل توسيع نطاق إمامته إلى أقصى حدود ممكنة، ومن أجل تدمير بقايا نفوذ "آل هلال". وتم تحقيق ذلك في ثلاث حملات:

كانت أولى هذه الحملات ضد حصن ينقل، الذي يسيطر عليه الهلاليون بقيادة ناصر بن قطن، واستسلم الحصن بسرعة لحملة قادها الإمام والقاضي خميس بن سعيد، ولم يحصل الهلاليون على أي دعم من حلفائهم السابقين، وهم قبيلة الجبور وآل الرئيس. ولم يضع الإمام ناصر وقته فقد أرسل فوراً قوات بقيادة الشيخ عبدالله بن محمد النزوي في حملته الثانية إلى مدينة الجو (توام) واستولى عليها من الهلاليين، وعبرت القوة الجبال في الحملة الثالثة متجهة إلى لوي من قرى صحار والتي كانت قد غدت مكاناً لتجمع أعداء الإمام الذين طردوا من عُمان الداخل، وبعد مدة من الاضطرابات أدت إلى مقتل الملك الهلالي محمد بن جيفر، طلب ابن الملك المدعو سيف بن محمد الصلح ووقع على اتفاقية سلام مع الإمام ناصر عبر وساطة اليحامة.

كان الاستيلاء على حصن لوي يمثل نهاية ناجحة لجهود الإمام ناصر لتوحيد عُمان وترسيخ قواعد الإمامة اليعربية. وانطلاقاً من البدايات الأولى توسعت الإمامة حتى شملت عُمان بأكملها، وتم تجريد "الملوك" من ممتلكاتهم، وأمن الإمام ناصر ولاء القبائل كلها تقريباً، ولكنه اهتم على نحو خاص بالقبائل الموجودة في وسط عُمان وبدعم منهم استطاع تحويل اهتمامه إلى البرتغاليين الذين ما انفكوا يساعدون القبائل المعارضة للإمام ناصر بالإمدادات والمؤن والملجأ.

الإمامة الإباضية بعد ناصر اليعربي:

من الواضح أن إنجازات الإمام ناصر بن مرشد اليعربي قد حققت الوحدة والازدهار الاقتصادي لعُمان. لقد تطلعت عُمان إلى الخارج عبر البحار، وتبنت مشاريع لبناء "إمبراطورية" تمتد من شرقي

(١٧) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ١١٧.

أفريقيا إلى سواحل الهند الغربية^(١٨). وسار الأئمة اليعاربة الأوائل على نهج الإمام ناصر في مقارعة الدخلاء البرتغاليين والفرس وفي إعمار البلاد، وهذا ما فعله الإمام سلطان الأول (١٠٥٩-١٠٩٠هـ/ ١٦٤٩-١٦٧٩م)، ثم أعقبه ابنه الإمام سيف الأول (١٠٩٠-١١٢٣هـ/ ١٦٧٩-١٧١١م) الذي أتم أعمال والده في بناء أسطول بحري قوي وحقق الاستقرار واهتم بالمشاريع الزراعية والإروائية^(١٩). ثم خلفه ابنه الإمام سلطان الثاني (١١٢٣-١١٣١هـ/ ١٧١١-١٧١٨م)، وكانت وفاته إيذاناً ببداية صراع بين الأفراد الطموحين من الأسرة اليعربية الحاكمة للاستيلاء على السلطة، وبنهاية عصر القوة لليعارية، وقد أدى النزاع بين الأسرة الحاكمة إلى انقسام أهل عُمان إلى كتلتين قبليتين متنافستين:

١- الهناوية نسبة إلى (خلف بن مبارك الهنائي)، التي دانت بالمذهب الإباضي، وغالبيتهم يمانية جنوبية.

٢- الغافرية نسبة إلى (محمد بن ناصر الغافري)، التي شاع بينها المذهب السني، وغالبيتهم عدنانية شمالية.

ولا بد أن نستدرك ونقول إن هناك قبائل شمالية انضمت في تحالفها مع الهناوية. وقبائل جنوبية تحالفت مع الغافرية العدنانيين. وينطبق ذلك على المذهب، فليس كل الهناوية إباضية، ولا كل الغافرية من أهل السنة. ومن هنا فإن اقتران الكتلة الهناوية باليمانية والغافرية بالعدنانية إنما يرجع إلى زعامتهما، فقد كان خلف يمانياً ومحمد عدنائياً.

والملاحظ أن الإمامة ابتداءً من عهد الإمام ناصر بن مرشد اليعربي أصبحت (وراثية) في الأسرة اليعربية حيث يخلف الإمام الحاكم أحد أفراد الأسرة الحاكمة، ورغم أن هذا الأسلوب لم يكمن بدعة ابتدعها اليعاربة، ذلك أن الزعامة انحصرت في قبائل اليعمد مدة طويلة من الزمن حتى بدت وكأنها وراثية لم تكن بالضرورة مباشرة من الأب إلى الابن، ومعنى هذا تساهل العلماء الإباضية في تطبيق "مبدأ الانتخاب" الذي ميّز المذهب الإباضي، مع تمسكهم بالبيعة الخاصة (أهل الحل والعقد) وبالبيعة العامة (بيعة الرعية)^(٢٠).

بعد وفاة الإمام سلطان الثاني اليعربي ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م كان وريثه ابنه الصغير السن سيف الثاني، ولكن علماء الأمة وزعماء القبائل اختلفوا حول الأمر. فحدثت الفتنة أو "الحرب الأهلية"^(٢١).

(١٨) باثيرست، تاريخ اليعاربة في عُمان، مترجم، ص ١٠١ فما بعد؛ السيار، دولة اليعاربة في عُمان وشرقي أفريقيا، دبي، ١٩٩٢م، ص ٤٢.

(١٩) الأزكوي، كشف الغمة، ج ٢، ص ٩٦٣ فما بعد؛ السالمي، عبدالله بن حميد، (ت ١٩١٤م)، تحفة الأعيان في سيرة أهل عُمان، مسقط، ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ٢٦؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٥٧.

Towsend, The making of Oman, London, 1977, pp. 35.

سيف المسكري، الإمامة والصراع على السلطة في عُمان ١٧١٩-١٧٤٩م، أطروحة ماجستير، جامعة السلطان قابوس، ٢٠١٢م، ص ٤٣.

(٢٠) Towsend, op. cit. pp. 36f.

(٢١) باثيرست، تاريخ اليعاربة في عُمان، ص ١٨٧ فما بعد.

الفتنة:

إن الخلاف حول من سيخلف (سلطان الثاني) في السلطة، كما يراه جمهور المؤرخين المحدثين يمثل صراعاً مباشراً بين شيوخ القبائل المدعومين من اليعاربة وبين العلماء الإباضية، فقد فضل العلماء انتخاب (مهنا بن سلطان اليعربي) الذي كان فيه كل الصفات التي تؤهله للإمامة من وجهة نظرهم، بخلاف سيف الثاني الذي كان غير مقبول لصغر سنه الذي لم يتجاوز ١٢ سنة. وربما كان موقف العلماء يمثل وقفة ضد انتخاب شخص غير مناسب بسبب عمره، أو يمثل محاولة للعودة إلى الطرق التقليدية الإباضية للانتخاب، بينما أصرّ زعماء القبائل وخاصة في الرستاق على مبدأ التوريث، أي أن يكون سيف الثاني خلفاً لأبيه سلطان الثاني، ويرى المؤرخ العُماني السيابي أن وراء إصرار رؤساء القبائل هذا محاولة للوصول إلى النفوذ والمصالح الخاصة، حيث يقول:

"... كان غرضهم (أي شيوخ القبائل) من هذا أن تكون لهم عند سيف بن سلطان يد يتسلطون بها على عباد الله، وإلا فما بالهم يعارضون العلماء وقد علموا أن الإمامة لا تقوم إلا على محور العلماء"^(٢٢).

لقد بايع العلماء (المهنا بن سلطان) في مايس سنة ١٧١٩م في قلعة الرستاق، ولكن أهل الرستاق وبقية اليعاربة اعترضوا على إمامته، ولم يسمحوا له بالحكم، ونددوا بما فعله (القاضي عدي بن سليمان الذهلي) من إعلان إمامة المهنا. بل أكثر من ذلك أقنعوا (يعرب بن بلعرب اليعربي) على الخروج عليه. ولم يتمكن المهنا من الحصول على تأييد الناس له وحوصر في الرستاق حيث طالبه يعرب بالاستسلام ووعد بالآمان. ولكن يعرب قيده بعد استسلامه بالسلاسل وقتله! وكان ذلك سنة ١٧٢١م على أن يعرب لم يدع الإمامة بل جعلها لسيف الثاني، وعَدَّ نفسه "القائم بالأمر أو الوصي". ويرى الباحث العُماني سيف المسكري^(٢٣) أن هذه الخطوة هي سابقة تعد الأولى من نوعها في تاريخ الإمامة الإباضية وليس هناك رأي في الفقه الإباضي يسندها "إذ لم يسبق أن نصب إماماً فتى لم يتجاوز عمره اثني عشر عاماً إضافة إلى تنصيب وصي أو نائب له، فذلك ليس من تقاليد الإمامة المعمول فيها عند الإباضية". على أن يعرب بن بلعرب لم يلبث أن تقلد الإمامة وبمباركة القاضي عدي والعلماء بعد استنابته من الأعمال التي فعلها وأقام في الرستاق مع سيف الثاني ثم انتقل إلى نزوى سنة ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م.

لقد كانت هذه الظاهرة المتمثلة بالإطاحة بمهنا وتنصيب يعرب نذير اندلاع فتنة أو "حرب أهلية" لا نظير لها في تاريخ عُمان، حيث غدت فيها القوة هي القانون وهي التي تقرر السلطة، وبدا واضحاً كذلك أن ميزان القوة مال نحو رؤساء القبائل أمام تراجع نفوذ العلماء.

كانت القبائل في الرستاق غاضبة ومعارضة لانتخاب يعرب، فالإمامة في نظرهم يجب أن تبقى لسيف الثاني. وبدأ التمرد القبلي الجديد تحت قيادة (بلعرب بن ناصر اليعربي) الذي طلب دعم قبيلة

(٢٢) السيابي، سالم بن حمود، عُمان عبر التاريخ، مسقط، ٢٠٠١م، ج٤، ص ٢٣ فما بعد.

(٢٣) سيف المسكري، الإمامة، ص ٤٩.

بني هناة الذين هاجموا الرستاق واستولوا عليها. هذا بالإضافة إلى تلقي بلعرب المساعدة من قبائل الرستاق، وتقدمت "ثورة" بلعرب بن ناصر وسيطرت على قلاع نخل ومسقط وسمائل، ثم انضم إليه بنو رواحة وساعده في الاستيلاء على إزكي.

حاول الإمام يعرب إنقاذ الموقف وبصحبة القاضي عدي الذهلي ورجال من قبائل نزوى وقبيلة (بني ريام) انطلق صوب إزكي حيث رحب به شيوخ الولاية^(٢٤)، وكان رجال بلعرب محتجزين في القلعة التي شُنَّ هجوم عليها، وبمجرد أن أطلقت قذيفتان من أحد المدافع، وصلت كتيبة من قبيلة "بنو هناة" بقيادة علي بن محمد وفرقت جيش يعرب، الذي هرب إلى نزوى، بينما هرب القاضي علي بن سليمان وسليمان بن خلف إلى الرستاق، حيث اعتُقلا يوم ٢١ سبتمبر أيلول، وقتلا هناك، وسُحبت جثتاها في الشوارع بواسطة رجال بلعرب، وتعتبت قوة "بنو هناة" يعرب إلى نزوى حيث كان محاصراً في القلعة. وبعد ذلك بمدة قصيرة، وبمساعدة شيوخ نزوى، أُنقذ يعرب بإخلاء القلعة^(٢٥) والاستسلام.

كانت ثورة بلعرب قد قطعت شوطاً كبيراً انطلاقاً من بلاد سبت، وعبرت الجبال إلى الرستاق، وصولاً إلى مسقط، وبعد ذلك قطعت طريقها من وادي سمائل وصولاً إلى إزكي واتجهت إلى نزوى، وكانت الثورة قد طوقت منطقة وسط عُمان بأكملها. وانتهت إمامة يعرب وانتقل إلى جبرين، وكان المرور بسلاح إليها شرطاً من شروط استسلامه. فأطلقت مدافع قلعة نزوى، ومن غير أي تجمع للعلماء أو الناس، تم إعلان (سيف الثاني بن سلطان الثاني) إماماً رسمياً في النهاية.

وبالمعايير الإباضية الصارمة، لم يتوافق أي من أسلاف سيف الخمسة مع المؤهلات الدقيقة "للإمام الشرعي"، وبعد تنصيب سيف من قبل "زعماء قبليين"، حيث لم يكن هناك من يخالفهم؟ وبالتأكيد لم يكن "العلماء" قادرين على العمل من غير الدعم القبلي، وكان يمكن توقع مرحلة من الاستمرارية بعد تبرير آراء الزعماء القبليين بشأن الإمامة. ولكن الأمر لم يكن يسير على هذا النحو. وعندما قدمت القبائل وزعمائها إلى الرستاق من أجل تقديم فروض الولاء والقسم على الطاعة لسيف، هدد بلعرب الذي كان قد عُيِّن وصياً على سيف قبائل بهلاء وقبيلة "بنو غافر" وزعيمهم محمد بن ناصر الغافري، الذي كان زعيماً يتمتع بالحزم والتصميم والقدرة على القتال، وكانت تهديدات بلعرب له هي التي أثارت الحرب الأهلية.

فقد كتب محمد الغافري رسالة إلى يعرب، الإمام السابق، وإلى أهل بهلاء يحثهم على الخروج ضد بلعرب. وفي الوقت نفسه تقارب مع قبائل الشمال مثل قبيلة نعيم وقبيلة "بنو قطاب" وطالبهم بالحصول على دعمهم. أما بلعرب فقد حصل على ولاء أهل نزوى، وأرسل ثلاث كتائب من أجل إلقاء القبض على يعرب، وإحضاره إلى الرستاق. قطعت القوة الأولى بقيادة سليمان أخو بلعرب طريقاً طويلاً من أجل الوصول إلى نزوى، عبر وادي سمائل، وفي أثناء وجودهم في منطقة "فرق" بالقرب من نزوى سمعوا صوت إطلاق نار من مدفع، وعلموا أن يعرب قد أحبط مخططهم بدخوله قلعة نزوى. فكان من

(٢٤) الأركوي، كشف الغمة، ص ٣٧٥.

(٢٥) المصدر نفسه.

غير المجدي الاستمرار في مسيرتهم، فقد عادوا إلى وادي سمائل، واستولوا على حصن إزكي. أمّا القوة الثانية، التي أرسلت عبر الظاهرة في بهلاء، فأُسريت ولم يكن مصير القوة الثالثة أفضل حالاً من سابقتها، حيث كانت قد أرسلت عبر وادي "بنو غافر" من خلال الجبل الأخضر، ولكنها صُدّت وعادت إلى الرستاق.

وحاول يعرب الاستيلاء على إزكي، من غير الانتظار لقدم محمد بن ناصر الغافري ومؤيديه من سمائل. وأخذت الكتيبة الأولى التي أرسلت مدفعين، ولكنها تعرضت لهزيمة وتراجعت إلى نزوى، وجاءت كتيبة ثانية وعادت من غير إطلاق طلقة واحدة، واحتلت كتيبة ثالثة الجانب الغربي من إزكي وقصفت الحصن بالمدفعية. وبعد أيام، وصل مالك بن ناصر إزكي قادماً من الرستاق بتعزيزات وانضم إلى سليمان في الحصن. وتثوّقَتْ روايات عن قوة يعرب، حيث نهب البدو الموجودون في هذه القوة أحياء بمدينة إزكي، وهاجم الرياميون من نزار الحي الرواحي من أصول يمانية، وفي يمان تعرض رجال يعرب لهزيمة وفقدوا أحد قادتهم، هو محمد بن سعيد بن بهلاء.

أرسل مالك بن ناصر رسالة إلى الشرقية طلباً للمساعدة والحصول على وحدات عسكرية كبيرة من هناك، مع انضمام عدد كبير من قبيلة "بنو هناة" إليه في إزكي، وهاجمت هذه القوة المشتركة جيش يعرب في معركة كبرى، وتعرضت للهزيمة وتبعثرت، وقيل إنّ هناك ثلاثمائة رجل سقطوا قتلى من كلا الجانبين^(٢٦).

تراجع يعرب وبقايا جيشه إلى نزوى، وكانوا مضطرين لاتخاذ وضعية دفاعية انتظاراً لوصول وحدات محمد بن ناصر الغافري. وسارت قوات بلعرب صوب منح، واستغلت الفرصة لحرق وسرقة قرى وادي الحجر على طريقهم. وفي منح نهبوا وحرقوا البيوت وقتلوا سكانها الذين لم يهربوا، وعند تقدمهم صوب نزوى عسكروا في مسجد بقرية فرق، وحرقوا المنازل الموجودة هناك، وفرضوا حصاراً على نزوى. ودمروا المزارع، وخصوصاً حقول قصب السكر في الحيلي والخضراء، وشنَّ أفراد من نزوى من رجال يعرب هجمات متكررة على قوات بلعرب، وفي إحدى المعارك كانت قوات مالك بن ناصر قد تعرضت لهزيمة شبه تامة، فعمد رجال يعرب إلى السرقة والنهب. وفي معركة تالية بمنطقة العقر قتل مالك بن ناصر، واستمر القتال المنقطع مدة شهرين حتى وصول محمد بن ناصر الغافري. كان محمد الغافري يقطع طريقه صوب نزوى من الجهة الشمالية الغربية مع جيش مكون من رجال قبائل "بنو غافر" و"بنو يأس" و"بنو قطان" وغيرهم، وتأخر في أثناء خوض معارك في وادي السقال بمدينة الجو وفي ضنك وفي الغبي. وأسهم وصوله إلى نزوى في تغيير الوضع تماماً؛ حيث تولى المسؤولية فوراً وأمر بشن هجوم على جيش بلعرب في قرية فرق. وطوّق جيش بلعرب، وخلال أربعة وعشرين ساعة كان محمد الغافري قد استولى على فرق وكان العدو قد هرب. فقد بلعرب الفرصة لإعادة الاستيلاء على نزوى، وشُنَّت حرب ضده في الرستاق، وبعد تركه لـ "يعرب" المريض في نزوى قاد محمد الغافري جيشه واجتاز الجبل الأخضر، وعسكر في منطقة فلج الشراة بالقرب من الرستاق، وهناك تعرض لهجوم من

(٢٦) الأركوي، كشف الغمة، ص ٣٧٥.

الحامية الموجودة في مزهيت تحت قيادة علي بن محمد، الرجل الذي كان قد فرق جيش يعرب في إزكي، ولكن هذه الكتيبة تعرضت للهزيمة. ولم تُشنَّ أيَّة هجمات إضافية من قبل بلعرب الذي جاء لمقابلة محمد الغافري في فلج المدرة طالبًا السلام فوَفَّقَ على ذلك شرط تنازله عن كل الحصون، ودخل الزعيمان الرستاق التي نهبت انتقامًا لاغتيال القاضيين اللذين هربا إلى هناك، ومقتل الإمام مهنا، وكان بلعرب مسجونًا ومقيّدًا بالأغلال، وانتهت وصايته باستسلامه. وأُعلن عن تنصيب سيف بن سلطان الثاني، الذي كان قد وصل إلى سنّ البلوغ إمامًا، مجددًا بواسطة محمد الغافري، وبعد وقت قصير، وفي يوم ٢١ مارس عام ١٧٢٣م مات يعرب في نزوى^(٢٧).

انتخاب محمد بن ناصر الغافري إمامًا لدولة اليعاربة:

إن القتال الذي حدث منذ وفاة سلطان بن سيف الثاني في عام ١٧١٩م يمكن رؤيته على أنه أولاً: معارضة لتنصيب مهنا إمامًا وتفضيل سيف، وثانيًا معارضة لـ "يعرب" بسبب عزله لـ "سيف"، وثالثًا: سلوك بلعرب كوصي على العرش. وأدى العامل الأخير إلى تنظيم حملة من قبل محمد الغافري للإطاحة به مستخدمًا يعرب كواجهة. ولا يمكن أن ينظر إلى حركة محمد الغافري على أنها خروج ضد الإمامة كنظام، أو ضد اليعاربة كأُسرة حاكمة، أو ضد سيف الثاني؛ لأن قبول كل هؤلاء كان قد تأكد من خلال الإعلان الفوري عن تنصيب سيف كإمام بعد هزيمة بلعرب. على أن القتال الذي استشرى أغرى القبائل بالقتال ضد بعضها، وتفاقت العداوة التي نجمت عن ذلك بفعل عدد من الحوادث: مثل مقتل مهنا خلال قيام حركة يعرب الأولى، ومقتل القاضيين خلال حركة بلعرب. إن بعض النتائج التي أفرزتها حركة محمد الغافري أسهمت في المزيد من الحوادث الإضافية مثل النهب والسلب والحرق أدت إلى زيادة التوتر. وعلى أي حال، إن حركة بلعرب قد أدخلت "بني هناة" و"بني رواحة" في صراع مع "بني ريام" وتعمق العداء خلال التمرد التالي، عندما اتحد "بنو هناة" و"بنو رواحة" وقبائل من الشرقية (ربما قبائل حرث والحبوس وآل وهيبة) ضد قبائل "بنو ريام" و"بنو غافر" وقبائل من الشمال (نعيم، بنو قطاب، وبنو ياس، والبدو من الظفرة). ولكن هزيمة بلعرب لم تضع حدًا للقتال والأعمال العدائية، بل حارب كلا الجانبين الغافري والهنائي بشراسة لثلاث سنوات أخرى، وامتدت المعارك لتشمل عُمان كلها وجذبت كل القبائل للدخول في الصراع. وقد برز لقيادة الكتلة الهناوية (خلف بن مبارك الهنائي) الذي سيطر بمساعدة بني هناة وبسرعة على مسقط ثم على حصن بركاء ومناطق أخرى، وتواترت الأخبار عن أن والي بركاء قد ذبح لدى وصوله إلى هناك.

أما محمد بن ناصر الغافري فبعد أن استولى على الرستاق انضم إليه بنو كليب وبنو كعب ومجموعة من البدو يقودهم رماح بن مطر الهولي. وكان هذا إضافة إلى بني غفار وبني ريام وبني حراص وغيرهم، إن هذا الوضع معناه أن التحدي أمام سلطة محمد الغافري قد تفاقم، فقد تحرك خلف الهنائي بقواته عن طريق البر والبحر لمواجهة قوات الغافري والتقى الجانبان غرب بركاء ووقع قتال ضاري

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٧٨.

انتهى بهزيمة الهناوية الذين تم مطاردتهم حتى دخلوا حصن بركاء، وكانت حصيلة المعركة أكثر من ألف قتيل.

عاد محمد الغافري وكتلته إلى الرستاق، وقضوا الشهرين التاليين هناك، ثم قرر بعدها مهاجمة بني علي الذين يمتلكون نفوذًا قويًا في ميناء الصحم، وسار الغافري ومعه سيف الثاني مع وجود بلعرب مقيّدًا بالسلاسل صوب مدينة ينقل عاصمة بني علي، وطالبهم بالتسليم من غير جدوى. وهناك وقعت المعركة بين بني علي وقوات محمد الغافري، وكانت معركة شرسة استخدم فيها الغافرية المدفعية، وتعطلت قناة المياه التي تزود الحصن بالماء اللازم، فقبلت الحامية الاستسلام^(٢٨).

ويبدو من غير الواضح السبب الذي دفع محمد الغافري إلى استدعاء رؤساء القبائل والعلماء الإباضية وطلب منهم أن يلتمسوا له العذر للتحدي عن مسؤولياته في إدارة الإمامة وأن يعينوا وصيًا على الإمام سيف الثاني، ولكن القاضي ناصر بن سليمان وزعماء القبائل رفضوا طلبه بل أكثر من ذلك انتخبوه إمامًا (من باب التقية)!!

وفي يوم السبت الموافق ٢٧ سبتمبر عام ١٧٢٤م / ١١٣٧هـ بعد مرور تسعة عشر شهرًا تقريبًا على حملته الأولى ضد بلعرب في الرستاق، نيابة عن يعرب، أطلقت مدافع القلعة قذائفها، وصدر إعلان عن انتخاب محمد الغافري إمامًا وعن حرية المرور الآمن لكل قبيلة مهما كان نسبها، للقدوم إلى نزوى لتقديم فروض الولاء إلى محمد الغافري.

ويمكن أن نخمن في ما إذا كانت هذه هي النتيجة التي كان يخطط لها مسبقًا محمد الغافري أم لا، وكانت سمعته كقائد عسكري ناجح وشجاع سوف تضمن له الحصول على تأييد القبائل "الغافرية"، الذين كانوا يخشون في الغالب من حصول "الهناوية" على اليد العليا. وعلاوة على ذلك، كان محمد الغافري قد وضع نفسه على نحو إيجابي في صف اليعاربة وإمامتهم عبر اصطحابه لسيف ورجال قبيلته معه في كل حملاته. وعلى أي حال، كان حكم اليعاربة المتواصل قد كسر بواسطة وصاية محمد الغافري على الإمامة، وقُبل هذا على أنه اعتراف "شرعي" بانتخابه إمامًا.

لم يكن لانتخاب محمد الغافري أي تأثير واضح على المعارضة العنيدة "للهناوية"، وكانت العوامل الجغرافية بالإضافة إلى التوزيع العشوائي للقبائل المعارضة قد حددت المناطق التقريبية لمجالات نفوذ محمد وخلف، وكانت هناك كل الإشارات الدالة على وجود مأزق، وقد انعكس هذا على أنشطة محمد الغافري فورًا بعد انتخابه؛ فبعد بقاءه في نزوى لإمامة المصلين في يوم الجمعة التالي، انتقل محمد الغافري إلى جبرين وبقي هناك إلى أن حدث تمرد في الصير استدعى تدخله، وكان مانع بن خميس العزيزي قد هاجم منطقة "الغبي"، ونهب سوقها واستولى على الحصن، وأبحر محمد الغافري مع قوة مكونة من ستة أتباع فقط وأعاد الاستيلاء على الحصن. وبعد أن عُيِّن واليًا على منطقة "الغبي" عاد إلى جبرين.

أخرت مسؤوليات الإمام محمد الغافري من العودة إلى القتال ضد "الهناوية". وفي منطقة ضنك

(٢٨) باثيرست، تاريخ اليعاربة في عُمان، الترجمة، ص ١٩٥.

السفلى كانت قبيلة الوحشي، وهي فرع من قبيلة نعيم، قد فقدت بيوتها وأحياءها، وربما لقبيلة آل "عزيز"، وهي فرع آخر من قبيلة نعيم، وكان مطلوب من محمد الغافري شن حملة عسكرية من أجل إعادتها، واقتراح محمد الغافري أيضًا إعادة بناء الحصن في ضنك، الذي كان قد دمر من قبل، وعند سيره باتجاه ضنك اعترضته قبيلة آل العزيز الذين عارضوا عودة قبيلة الوحشي، وإعادة بناء الحصن، وحدثت مواجهة تفرقت بعدها "آل العزيز" التي كانت محدودة العدد، وفر قائداهم مانع بن خميس إلى السنينة من أجل اللجوء إلى قبيلة "نعيم". ولكنه أُسرَ وأُعيد إلى ضنك، وتقدم محمد الغافري إلى منطقة "الغبي" ودمر القوات المائية (الأفلاج) لقبيلة "آل عزيز" في أثناء مروره عليها^(٢٩).

تجددت الأعمال العدائية بين الهناوية والغافرية، وفي أثناء وجود محمد الغافري في منطقة الغبي جمع رجال القبائل من الظفرة وأضاف إليها رجال قبائل من جبرين ونزوى وإزكي، وفي إزكي انضم إليه رجال من المنطقة الشرقية، في إشارة مؤكدة إلى نفوذه المتزايد. وأصبحت قبيلة "بني رواحة" في وادي سمائل قلقة في ذلك الوقت إزاء تجمع هذا الجيش، ولكنهم لم يواجهوه؛ لأن محمد الغافري تخطى الجزء الأكبر من أراضيهم، وذهب إلى سمائل، وعندما دعا أفراد "الهناوية" للاستسلام رفضوا دعوته. وفي النهاية، جرى الحديث مع أفراد قبيلة "عكاشة" وقبيلة الهلالي لكي يقدموا ولاءهم لمحمد الغافري، ولكن البكرين، وهم فرع من قبيلة بني رواحة، لم يقتنعوا، فأمر محمد الغافري بشن هجوم ليلي عليهم. ولأن المهاجمين لم يُعترف إليهم إلى أن فرضوا سيطرتهم فَرَّ سكان المنطقة بسرعة، وتعرض المدافعون للذبح، وسُوِّيت الأبنية بالأرض، وقدم أفراد قبيلة "بنو رواحة" فروض الولاء لمحمد الغافري، وأجبرت سمائل على دفع زكاة ثلاث سنوات، وأُعيدت الأراضي والعقارات إلى أصحابها الشرعيين.

كان استسلام سمائل تقدمًا مهمًا لمحمد الغافري، وأصبح بنو رواحة الهناويون أكثر عزلة. وفي سمائل كان محمد الغافري على اتصال مباشر مع مؤيدين غافريين آخرين، وهو "بنو جابر"، حيث مرَّ مقاتلوه عبر أرضهم من أجل اعتراض خلف الهنائي في الطريق من مسقط إلى الرستاق، ولكنه حُذِرَ، فلم يخرج من مسقط. وبينما كان محمد الغافري ينتظر في الحيل بمنطقة الباطنة، لمدة أسبوعين، دخلت قبيلة "المعاول"، الذين كانوا مؤيدين هناويين سابقين في تفاهم معه، ولم يرَ محمد الغافري أي جدوى في محاولة الاستيلاء على مسقط، وتقدم إلى الحزم، وبعد ذلك إلى "ساني" في وادي بني غافر حيث سَرَّح قوّته^(٣٠).

أثارت مدة "الحرب القبليّة" التي اجتاحت عُمان فوضى عارمة، وهي سمة أساسية تمثلت في أنشطة بعض البدو على الطرق السريعة المؤدية إلى وسط عُمان، ويبدو أن المهاجمين كانوا من قبيل آل وهيبة، وفي البداية تعامل محمد الغافري معهم عبر إصداره أوامر لهم بالإقامة في مخيمات مع أسرهم وماشيتهم حول جبرين. وبسبب العشب المحدود في هذه المنطقة ماتت معظم ماشيتهم خلال مدة قصيرة، ولكنه شَنَّ حملة أخرى ضد "ديارهم" في المنطقة الشرقية. وهناك دمر محمد الغافري أحياءهم

(٢٩) الأركوي، كشف الغمة، ص ٣٨٣.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

في منطقة الصديرة وقتل عدداً كبيراً من السكان، وفر البقية إلى منطقة رمال وهيبة. وقد فاجأهم قوة غافرية، وقتلت ٣٦ رجلاً منهم، وأسرت ٩٥، واقتيد الأسرى إلى جبرين، ولكنهم بقوا مقرنين بالأصفاذ إلى أن ماتوا. وهرب زعيمهم أبو خرق إلى مسقط لاجئاً إلى "بني رواحة"، ولكنه وعد محمد الغافري في ما بعد بأنه لن يكون هناك أي هجمات على الطرق^(٣١).

سار الإمام محمد الغافري بحملته التالية صوب منطقة "بنو علي" و"بنو رواحة" في وسط عُمان، وبعد أن جمع قوة هائلة في جبرين قرر "بنو هناة" الاستسلام، وتمكنوا من التحرك في اتجاه ينقل، وهناك رُفِضت دعواته لـ "بن علي" بالاستسلام وبدأ الحصار، ولكن في الوقت نفسه، توصل أحد سكان ينقل، ويدعى "عصام"، إلى اتفاق مع محمد الغافري، وأدخل جيش محمد إلى المدينة عبر بيته الملاصق لجدار حصن ينقل، واجتاحت مدينة ينقل، وقُبِد شيوخها، واقتيدوا إلى جبرين، واستسلم بقية السكان، وعُيِّن والٍ على المدينة.

ومع وقوع الظاهرة ووسط عُمان والشرقية، ووادي سمائل تحت سيطرة الإمام محمد الغافري انطلق لمهاجمة أكثر مقرات خلف الهنائي انعزالاً، وهي صُحار، في حملة حسمت الصراع على نحوٍ غير متوقع بين الزعيمين، حيث أرسل ربيعة بن حمد الوحشي أولاً لتحذير حامية الحصن بعدم المقاومة، وتابع مسيره بجيش مكون من قبائل "بنو ياس" و"تعيم" و"الحضر"، وعندما وصل "الغافرية" إلى صُحار خرجت قوة من "الهنداوية" مكونة من رجال قبيلة "بنو هناة" و"آل عمور" لمهاجمتهم، وفي أثناء المعركة جرح ربيعة الوحشي وأُخذ أسيراً، ولكن القوة الهنداوية تراجعت بعد ما فقدت عدداً كبيراً من القتلى، إلى الحصن، واستسلم رجال مدينة صُحار لمحمد الغافري، وتلقوا تطمينات بالحفاظ على سلامتهم وأمنهم، وفي الوقت نفسه كان خلف الهنائي قد سمع بوصول الغافري، فحشد قوة من "بنو هناة" من مسقط والرسناق، وتقدم إلى قلعة الصُحمر، وعند وصوله إلى هناك وصلته تقارير تشير إلى أن قوته لم تكن تعادل بأي حال من الأحوال قوة محمد الغافري، إلا إذا تمكن من شق الشماليين العرب مثل قبائل "بنو ياس" و"تعيم"، الذين كانوا يشكلون أغلبية جيش محمد الغافري. ووفقاً للروايات المحلية تحقق هذا الأمر من خلال الإعداد لتدمير أحد حقول الدخن بالقرب من آبار صُحار أثناء الليل، وأن يلقي مالك الحقل تبعة هذا العمل على الشماليين، وعاقب محمد الغافري شيوخهم الذين كانت قبائلهم قد انتخبتهم للتو، وذلك بإعادتهم إلى بلادهم.

هاجم خلف الهنائي محمد الغافري فوراً منتهزاً فرصة تناقص قوته، وعندما سمع محمد الغافري بوصول خلف الهنائي تناقلت الروايات أنه قال: "الساعة ليست لنا، وليست لهم، ولكن ما شاء الله كان"، وصعد محمد الغافري على متن حصانه والتقت القوتان عند بوابة الحصن، وفي المعركة التي تلت قُتل خلف الهنائي وهزمت الهنداوية. وبينما كان محمد الغافري يطاردهم أصابته طلقة أطلقت من الحصن، ومات بعدها بمدة قصيرة. وأصبح الغافرية والهنداوية بعد سنوات طويلة من القتال فجأة من غير زعماء، وتراجعت القوة الهنداوية إلى الحصن، ولكن بسبب عدم امتلاكهم الرغبة في خوض أي

(٣١) المصدر نفسه، ص ٣٨٥.

قتال آخر فقد استسلموا لسيف بن سلطان الثاني. وبعدما دفن محمد الغافري في البيت الغربي للحصن^(٣٢) أخذ سيف المبادرة، وقاد جيش الغافرية إلى الرستاق، حيث استسلمت الحامية الهناوية له. حشد سيف الثاني في أثناء اجتيازه وادي بني غافر المزيد من المؤيدين "الغافرية"، وشق طريقه إلى نزوى. وهناك، في النصف الثاني من شهر مارس عام ١٧٢٨م، أعيد تنصيبه إماماً من قبل القاضي ناصر بن سليمان النبهاني^(٣٣).

التدخل الفارسي وسقوط اليعاربة:

يرى باحثون معاصرون أن أسباب التدخل الفارسي في عُمان يعود إلى النزاع بين الأسرة اليعربية الحاكمة منذ نحو ١١٣١هـ/١٧١٩م واستمراره بدعم من القوى القبلية، وما نجم عنه من ظهور كُتلتَي الهناوية والغافرية، ثم لجوء سيف الثاني لطلب المساعدة العسكرية من فارس، كل ذلك شجع الفرس لانتهاز الفرصة التاريخية التي طالما انتظروها منذ وقت بعيد لغزو عُمان، ثم بسط سيطرتهم على الساحل الغربي للخليج^(٣٤). وقد استطاعوا بالفعل احتلال عُمان. يقول الإزكوي^(٣٥). "ثم إن سيف (الثاني) بن سلطان جعل يكاتب الأعداء من العجم لينصروه في ظنه وهم يريدون ملك عُمان وخرابها".

إن محاولات الفرس لغزو عُمان عديدة، فقد حاولوا مرات كثيرة استعادة نفوذهم على الساحل العُماني منذ أن أجلاهم مالك بن فهم الأزدي من غير جدوى، على أن الانقسامات الأسرية والظروف القبلية الداخلية هيأت الفرصة المواتية في هذه المدة من حكم اليعاربة الأواخر في القرن ١٢هـ/ ١٨م. وقد مر الغزو الفارسي بمراحل ثلاث:

- الحملة الفارسية الأولى ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م.
- الحملة الفارسية الثانية ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م.
- الحملة الفارسية الثالثة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م.

حاول سيف الثاني (١٧٢٨-١٧٣٧م) بعد انتخابه إماماً تثبيت سلطته في أصقاع عُمان، ولكن المصادر التاريخية العُمانية لا تعطينا سوى معلومات قليلة عن الأحداث، ومهما يكن من أمر فقد دخل الإمام سيف الثاني في مفاوضات مع شيوخ القبائل لتسليم قلاع المدن من غير جدوى. وهنا، وفي سنة ١٧٣٢م، برزت حركة معارضة تحت قيادة (بلعرب بن حمير اليعربي) الذي دخل نزوى وغدا إماماً منتخباً، وانقسمت ولايات المدن وقبائلها بين الخصمين المتنازعين سيف الثاني وبلعرب بن حمير، فكانت نزوى وإزكي وسمائل ونخل تابعة إلى بلعرب بالإضافة إلى قلاع الشرقية والظاهرة، وكانت قلاع

(٣٢) السالمي، تحفة الأعيان، ج٢، ص ١٤٠.

(٣٣) الأزكوي، كشف الغمة، ص ٣٨٥.

(٣٤) باثيرست، تاريخ اليعاربة في عُمان، الترجمة، ص ٢٢٧ فما بعد؛ مديحة درويش، سلطنة عُمان في القرن ١٨ و ١٩م، ص ٤٠، ٦٩ - ٧٤. Townsend, op.cit., 38. سيف المسكري، الإمامة، ص ٨٥ فما بعد.

(٣٥) الأزكوي، كشف الغمة، ص ٣٨٥ فما بعد.

الريستاق ومسقط والباطنة ويبيدين لسيف الثاني^(٣٦).

لقد أظهر الإمام سيف الثاني درجة عالية من الإصرار على الاستمرار في الصراع عبر التطلع إلى الخارج لجلب رجال من المرتزقة من أجل تعزيز قوته، وكان البلوش من مكران الدفعة الأولى من القوات التي التحقت بأنصار سيف الثاني الذي سار إلى الظاهرة والتقى بقوات بلعرب، ولكن قواته انهزمت في المعركة^(٣٧)، فقرر سيف الاتصال بنادرشاه ١٧٣٧م، فاستغل هذا الفرصة وأرسل حملة بحرية من أجل مساعدة سيف ظاهرياً، ولكن من أجل غزو عُمان فعلياً، والنقت قوات الطرفين في معركة خسر فيها بلعرب وسقطت كل من الجو وضنك والغابي في يد سيف الثاني، كما استسلمت قبائل الظاهرة^(٣٨). على أن مشاجرة حصلت بين سيف والقائد الفارسي الأفشاري (لطيف خان) بسبب سلوك الفرس الغزاة في قتل الأطفال والنساء، بالإضافة إلى طريقة تعاملهم معه بالذات، ولذلك قرر لطيف خان العودة بقواته إلى جلفار، ومن ثم العودة إلى فارس^(٣٩).

قرر نادرشاه تجهيز حملة عسكرية ثانية سنة ١٧٣٨م بقيادة (تقي خان) الذي كانت لديه توجهات صارمة بالاستيلاء على مسقط، وكان سيف في مسقط يستعد لمجابهة حلفائه السابقين، ولم يواجه جيش تقي خان مقاومة جادة حتى وصلوا بهلاء، حيث قتل في المعركة عدد كبير من قوات الطرفين، وبعد استلام بهلاء تقدم الفرس إلى نزوى حيث فر بلعرب بن حمير إلى بني غافر، واستعدت حامية بني حراص للمقاومة، إلا أن الفرس دخلوا نزوى التي تعرضت لمعاناة كبيرة بكل المقاييس من مذابح وسبي وأتاوات باهظة من المال. وتشير روايات تاريخية ووثائق رسمية إلى أن عشرة آلاف امرأة وطفل قد قتلوا، وبعد إخضاع بقية مدن المنطقة كان هدف الحملة مسقط التي سقطت بأيديهم في ١٤ نيسان من السنة نفسها، أما سيف الثاني فقد أبحر من مسقط بسفينتين ونزل بركاء، وهناك تقرر أن يلتقي الزعيمان اليعربيان سيف وبلعرب في وادي بني غافر، وفي اللقاء قرر شيوخ بني غافر وزعماء قبيلتين آخرين أن يتنحى بلعرب عن الإمامة لصالح سيف من أجل تكوين جبهة واحدة ضد الفرس^(٤٠). وبعد مناوشات بين الفصائل العُمانية المتحدة والفرس خسر فيها الفرس العديد من القتلى تراجع تقي خان إلى جلفار ومن هناك إلى الساحل الشرقي. وكان هذا نهاية الحملة الفارسية الثانية في تموز من السنة نفسها.

وفي آذار سنة ١٧٣٩م/ ١١٥٢هـ تلقى تقي خان توجيهات بتكوين حملة جديدة بحلول شهر سبتمبر، الهدف منها مهاجمة مسقط وتسويتها بالأرض. أما الإمام سيف الثاني فقد فرض ضرائب عالية لم تلق تأييد العلماء وقطاعات من أهل عُمان، وأدى هذا الاستياء إلى عقد اجتماع بين بعض العلماء من

(٣٦) مؤلف مجهول، تاريخ أهل عُمان، مسقط، ٢٠٠٥م، ص ١٧٨.

(٣٧) راجع خالد بن سيف البلوشي، علاقات عُمان ببلوشستان، مجلة الدراسات العُمانية، مسقط، ٢٠١٠م.

(٣٨) المعولي، محمد بن عامر، ١٧٧٦م، قصص وأخبار جرت بعُمان، مسقط، ٢٠٠٧م، ص ٢٨٦؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٩٦ فما بعد.

(٣٩) المعولي، محمد بن عامر، ١٧٧٦م، قصص وأخبار جرت بعُمان، ص ٢٨٨.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٩؛ ابن رزيق، حميد بن محمد (ت ١٨٧٣م)، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان، مسقط، ١٩٧٨م، ص ٣٣٠.

إزكي وبهلاء ونزوى وزعماء القبائل من الظاهرة ووادي سمائل وبني غافر والمعاول في مدينة نخل، وبايعوا بالإمامة (سلطان بن مرشد اليعربي) سنة ١٧٤١م الذي حصل على تأييد عام من الجزء الأكبر من أهل عُمان من الغافرية والهاووية، باستثناء قلاع الباطنة التي كانت خاضعة لسيطرة سيف الثاني^(٤١). ولعل السبب الرئيس لفقدان سيف الثاني سلطته كان كره أهل عُمان لمداهنته للفرس، وما أدى له الغزو الفارسي من بلاء وكوارث.

استطاع الإمام الجديد (سلطان بن مرشد) الدخول إلى الرستاق، ثم تقدم نحو مسقط واستولى عليها باستثناء قلعتي الجلالي والميراني^(٤٢). أما سيف الثاني فقد هرب مجدداً ووصل عن طريق البحر إلى خورفكان. ومعنى ذلك أن سيف كان لا يزال يمتلك الرغبة والطموح لاستعادة الإمامة، ولجأ مجدداً إلى نادرشاه مستعيناً به. والغريب على حد قول باثيرست^(٤٣) أن سيف الثاني عرض أن يكون تابعاً لنادرشاه إذا ساعده على استعادة سلطته وهزيمة الإمام سلطان بن مرشد، وحين سمع من أهل عُمان اقتراحه هذا تركوه وعادوا إلى بلدانهم. ومرة ثالثة استغل نادرشاه هذه الفرصة، خاصة أنه كان يطمع للسيطرة التامة على مسقط وسائر الموانئ العُمانية. وهكذا توافقت خططه لشن غزو عسكري على مسقط مع طلب سيف الثاني المساعدة، وأبحر الأسطول الفارسي باتجاه جلفار. التقى سيف الثاني مع قائد الأسطول الفارسي (نقي خان)، ووقعت معاهدة تعهد فيها الفرس بإعادة إمامة سيف مقابل اعترافه بسيادة فارس.

بدأت الحملة الفارسية الثالثة على عُمان في أوائل سنة ١٧٤٣م/١١٥٦هـ باتجاه مسقط، وبدأ الإمام سلطان بن مرشد اليعربي يستعد للمجابهة بتجنيد المزيد من المقاتلين من القبائل. وبعد معارك متبادلة بين الفرس وقوات الإمام سلطان قرر الأخير شن هجوم عام على صحار بعد وصول تعزيزات قبلية من الشرقية والظاهرة والباطنية وأنحاء أخرى من عُمان.

وفي صحار كان والي أحمد بن سعيد البوسعيدي لا يزال يعتصم في قلعة صحار، فكان التعاون بينه وبين الإمام سلطان في الهجوم ضد الفرس، حيث تم تطويقهم والقضاء على عدد كبير منهم. إلا أن قوة فارسية مكونة من ٥٠٠ مقاتل هاجمت العُمانيين وأخذتهم على حين غرة، فاستشهد العديد من العُمانيين بينهم أخو الإمام سيف بن مهنا والوالي صالح بن محمد الحضرمي، أما الإمام سلطان بن مرشد فقد جرح وحمل إلى القلعة من قبل والي أحمد بن سعيد البوسعيدي وتوفي بعد أيام قليلة، وأما سيف الثاني فقد هرب بعد أن أفلت من قبضة الفرس وذهب إلى قلعة الحزم وأدرك أن هؤلاء الفرس لا يتنازلون عن سلطتهم التي اكتسبوها في عُمان، وتوفي سيف الثاني بعد أيام قليلة من وفاة الإمام

(٤١) السالمي، التحفة، ج٢، ص ١٥٧؛ ابن رزيق، حميد بن محمد (ت ١٨٧٣م)، الصحيفة القحطانية، تحقيق حسن النابودة، بيروت، ٢٠٠٨م، ج٣، ص ٦١٣؛ راجع تفاصيل أكثر في باثيرست، الأزكوي، كشف الغمة، ص ٢٥٥ فما بعد؛ سيف العسكري، الإمامة، ص ١١٣ فما بعد.

(٤٢) ابن رزيق، الصحيفة القحطانية، ج٣، ص ٦١٠.

(٤٣) باثيرست، تاريخ البعارة في عُمان، الترجمة، ص ٢٣٨.

سلطان^(٤٤).

لقد تركت وفاة الإمام سلطان بن مرشد وسيف الثاني أهل عُمان من غير إمام، وكان اليعربي الوحيد الجدير بالثقة هو الإمام السابق بلعرب بن حمير، الذي بويع بالإمامة ثانية في الثاني من حزيران ١٧٤٤م/ ١١٥٧هـ ولكنه لم يعلن نفسه قائداً لطرد الفرس من عُمان، وهي مهمة صعبة لا يحسد عليها أحد، وترك الأمر لأحمد بن سعيد البوسعيدي والي صحار.

لقد خسر الفرس ما يقرب من عشرين ألف مقاتل في المعارك أو بسبب الأوبئة في حملاتهم العسكرية الثلاث على أنهم سيطروا على جلفار وصحار ومسقط حسب "اتفاقية الهدنة"، حيث تم ترك حاميات فارسية فيها.

ظهور أحمد بن سعيد على الساحة السياسية:

ومع أن الغزو الفارسي قلب نظام اليعاربة ونفوذهم رأساً على عقب، فقد بقي لديهم ما يكفي من التأييد لممارسة سلطة محدودة. ففي الثاني من حزيران سنة ١٧٤٤م، أعيد انتخاب بلعرب بن حمير إماماً لعُمان^(٤٥). ومن المحتمل أن هذا الانتخاب دبر من خلال الكتلة الغافرية، وخاصة بني غافر، الذين أيدوا بلعرب بن حمير في نزاعه مع سيف الثاني بن سلطان خلال مدة حكمه الأخيرة، كما أعانته هذه المساندة على الاستيلاء بسرعة على الحصون في عُمان الداخل^(٤٦). وفي الوقت نفسه كان أحمد بن سعيد يسيطر على بركة بالإضافة إلى موانئ صغيرة أخرى. وبوصفه هناوياً وقائداً للمقاومة ضد الغزو الفارسي تمكن وبسهولة من قيادة الكتلة هناوية، حيث تطلع بعد ذلك للوصول إلى السلطة العليا في البلاد، الأمر الذي لم يقبله بنو غافر الذين أدوا دوراً كبيراً في شؤون الإمامة منذ عهد محمد بن ناصر الغافري، كما لم يستسغه بعض شيوخ القبائل الأخرى، وفي هذه الظروف لم يكن هناك بد من اشتعال النزاع الغفاري- هناوي مرة أخرى.

لا تتفق المصادر التاريخية حول كيفية خضوع القلاع بحامياتها الفارسية نهائياً إلى أحمد بن سعيد، وهناك روايتان تاريخيتان مختلفتان، أما الأولى فتقول إن الفرس كانوا يرغبون في تسليم القلاع إذا حصل ذلك بطريقة لائقة، وقد أرسلت حاميات مسقط طلباً إلى الحزم المدينة اليعربية الرئيسية يلتمسون فيه إرسال شخصية يعربية معروفة موفداً إلى نادرشاه، فإذا وافق على تسليم القلاع له فعندئذ سيتم ذلك، ويضيف المصدر أن الإمام بلعرب انتهز الفرصة وحاصر القلاع لعدة أيام ولكنه لم ينجح باقتحامها^(٤٧). ومع وصول الموفد حاملاً رسالة الشاه بالموافقة إلى أحمد بن سعيد الذي لم يضيع الوقت في إرسال قوة لتسليم القلاع من الفرس^(٤٨).

(٤٤) المعولي، قصص وأخبار جرت بعُمان، ص ٢٩٦؛ السالمي، التحفة، ج ٢، ص ١٦٤.

(٤٥) المؤلف المجهول، تاريخ أهل عُمان، مسقط، ٢٠٠٥م، ص ١٦٠.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٦١.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٦١.

أما الرواية الثانية فتقول إن القوات الفارسية بقيت في مسقط حتى أرسل أحمد بن سعيد المال اللازم مقابل تسليم القلاع^(٤٩). وتتفق كل المصادر على أن قادة نادرشاه استقبلوا في بركة وأقيمت لهم الولائم ولكنهم سجنوا بعد ذلك وقتلوا^(٥٠). ومهما كان المصير الحقيقي للحامية الفارسية في مسقط، فإن حامية صحار، على ما يبدو كانت قد انسحبت في وقت سابق. وبعد سقوط قلعة مسقط لم يبق سوى قلعة جلفار وحاميتها، ويبدو من ملاحظات نيبور إن قبيلة الهولة في جلفار قد وسعت من نفوذها بحيث شملت كل منطقة الصير^(٥١). كما أنهم استغلوا فرصة الاضطرابات في وسط عُمان لمحاولة مد سيطرتهم باتجاه الجنوب. ومن هنا فقد شكلوا مشكلة جدية لأحمد بن سعيد لسنوات عديدة في ما بعد. ليس لدينا تواريخ دقيقة في المصادر العُمانية لخضوع قلاع مسقط، ولكن حدث بالتأكيد قبل عزل الإمام بلعرب. إن التذمر من إمامته يبدو واضحاً من الرسائل المتبادلة بين شيوخ بعض القبائل^(٥٢). بالإضافة إلى اتهامات معينة وجهها ضده الشيخ حبيب بن سالم في رسالة فيها إقرار بعزله بتاريخ ٢٢ آب سنة ١٧٤٧م / ١١٦٠هـ، وتعطي هذه الرسالة انطباعاً واضحاً بسلوكه التعسفي الذي أبعد كل القوى عنه^(٥٣). وبعد نشر الرسالة ضعفت سلطة بلعرب، وحين استجاب لدعوة ودية لزيارة الغابي فوجئ باعتقاله^(٥٤). وبتحريض الشيخ حبيب بن سالم لم يضيع أهل نزوى الفرصة لتقديم الطاعة وخضوع المدينة إلى أحمد بن سعيد^(٥٥). وقد أرسل أحمد بن سعيد ابن عمه خلفان بن محمد مع قوة لاحتلال المدينة، إلا أن قلعة المدينة كان يتحصن فيها والياً يعربياً مما تطلب محاصرتها حتى استسلمت^(٥٦). وحين تمكنوا من السيطرة على إزكي بعد حصار صعب، أدرك الغافريون أنهم قد أضعفوا نفوذهم حين أبعدها بلعرب من المسرح السياسي، وحينما تقدمت قوة من الظاهرة، ومعها الإمام السابق بلعرب مقيداً، باتجاه نزوى، حيث انضم إليها جماعات من الغافرية ربما من بني ريام، من وادي سمائل، وكان خلفان بن محمد البوسعيدي قد توقع ذلك وطلب تعزيزات من الهناوية من منطقة الشرقية، والنقى الطرفان في (فرق)، حيث نشبت المعركة التي لم تكن حاسمة. ومع ذلك أضعفت معنويات الغافرية الذين عادوا إلى منطقة الظاهرة وأطلقوا بلعرب بن حمير، الذي قرر الاعتكاف. بعد هذا التراجع الغافري لم يعد هناك أية عقبة أمام أحمد بن سعيد ليكون إماماً، وتم ذلك في ليلة ١٠ حزيران سنة ١٧٤٩م.

(٤٩) المعولي، قصص وأخبار جرت بعُمان، ص ٤٧؛ باثيرست، تاريخ اليعاربة في عُمان، ص ٢٥٦.

(٥٠) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ١٥٣-١٥٤.

(٥١) Niebuhr, Description del Arabia, 2 vols. Copenhagen, 1773, p. 266..

(٥٢) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٦٠-١٦٣.

(٥٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٤ فما بعد؛ المؤلف المجهول، قصص وأخبار، ص ١٦٢ فما بعد.

(٥٤) المؤلف المجهول، قصص وأخبار، ص ١٦٤.

(٥٥) قارن ابن رزيق، الفتح المبين، ص ١٥٤.

(٥٦) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٦٧.

١١٦٣هـ^(٥٧). لقد أعلن هذا الانتخاب تأسيس أسرة حاكمة جديدة في عُمان^(٥٨). إلا أن المعارضة لم تنته في الظاهرة، حيث وجد الغافرية من الصعب الاعتراف بزعيم من الهناوية يتقلد الإمامة في وسط إقليم الغافرية.

لقد قاوم اليعاربة فقدانهم الإمامة، مما أدى إلى معارضة علنية في مدن اليعاربة الرئيسة مثل الحزم ونخل، وقد شجع شيوخ بني عدي - في الرستاق هذا الموقف المتحدي؛ وذلك لإدراكهم أنهم سيفقدون كثيرًا من تولي الأسرة الحاكمة الجديدة التي ستتبنى نظامًا مختلفًا فيما يخص الأفضلية والامتيازات، ولم يكن أمام أحمد بن سعيد البوسعيدي إلا طريقًا واحدًا لتثبيت سلطته على سفح الجبل الأخضر وهو طريق القوة. لقد حققت الحملة الأولى ضد الحزم بعض التحسن الوقتي، ثم أرسلت حملة ثانية لحصار القلعة، على أن العداء لأحمد بن سعيد كان لا يزال قويًا في الظاهرة، ولذلك أرسل الغافرية قوة لإنقاذ المحاصرين في قلعة الحزم، إلا أن قوة الإنقاذ هذه هزمت بعد معركة مع قوات الإمام الجديد، وقرر أحمد بن سعيد ترك حصار القلعة والاتجاه نحو نخل لحل خلافاته مع حاكمها محمد بن سليمان اليعربي من التسلل من القلعة قاصدًا الظاهرة، وعاد ومعه مساعدة عسكرية من الغافرية. وفي معركة حامية انتصر فيها أحمد بن سعيد، ولكن اليعاربة بقوا متمسكين بالقلع، رغم أن معارضتهم قد قمعت^(٥٩).

لقد كان تثبيت نفوذ أحمد بن سعيد البوسعيدي على منطقة الظاهرة أمرًا حتميًا لا مفر منه في ذلك الوقت رغم أن سكانها لم يرتضوا أيًا من الولاة الذين عينهم، وكانت القاعدة الرئيسة له مدينة ينقل، حيث كان سكانها من بني علي من الكتلة الهناوية، وبعد عدة أشهر جرب اليعاربة محاولتهم الأخيرة لاستعادة سيطرتهم، منتهزين فرصة غياب أحمد بن سعيد من وسط عُمان. لقد اتجه مبارك بن مسعود الغافري نحو وادي سمائل، بينما توجه بلعرب بن حمير وعلي بن ناصر اليعقوبي (من المحتمل أن يكون شيخ منطقة عبري) نحو نزوى محاصرين القلعة، إلا أن أحمد بن سعيد جمع قواته وسار مباشرة لتعقبهم، لقد اتجه أولاً إلى سمائل حيث كان مبارك الغافري وعدد من اليعاربة يجمعون حلفاء لهم، ووقعت المعركة ٣٠ آب سنة ١٧٦٢م/ ١١٧٦هـ، وقتل فيها مبارك الغافري وهزم أتباعه، ثم اتجه أحمد بن سعيد نحو نزوى، وبعد خمسة أيام، وتحديداً في ٤ سبتمبر/ أيلول تقابل الطرفان في فرق، حيث قتل بلعرب بن حمير وعلي اليعقوبي في المعركة^(٦٠).

لقد كان ذلك نهاية عهد اليعاربة في الإمامة في عُمان، حيث سحقته سلطة اليعاربة، يقول السالمي:

(٥٧) المؤلف المجهول، تاريخ أهل عُمان، ص ١٦٣ فما بعد؛ قارن ابن رزيق، الفتح المبين، ص ١٥٥؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٦٩.

(٥٨) راجع تعليق السالمي في تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٦٩؛ باثيرست، تاريخ اليعاربة، هامش ٢٤، ص ٢٦٣ من الترجمة.

(٥٩) المؤلف المجهول، تاريخ أهل عُمان، ص ١٦٤ فما بعد.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ١٦٥؛ قارن ابن رزيق، الفتح المبين، ص ١٦٤ فما بعد، لا يثق باثيرست في بعض المعلومات التي أوردها ابن رزيق عن أحداث هذه الفترة، ويرى أن ابن رزيق ينظر إليها نظرة عرقية (أي نزارية/ يمانية).

"فلما غيرت اليعاربة سيرة السلف الصالح وظنوا بغباوتهم أن الدولة ميراث وتكالبا على الملك أذهب الله ذلك من أيديهم وجعله إلى غيرهم"^(٦١).
ويعلق بيترسون على نهاية اليعاربة بقوله: "لقد وصلت هذه الأسرة الحاكمة الذروة بطرد البرتغاليين من الساحل والانفتاح على الخليج العربي والساحل الأفريقي، وكانت نهايتها نزاعاً أسرياً حاداً وصراعاً قبيلاً أدى إلى سقوطها واحتلال الفرس السواحل العمانية"^(٦٢).
ولعلنا في نهاية المطاف نخلص إلى الرأي الذي أشرنا إليه سابقاً، أن حقبة حكم اليعاربة وخاصة اليعاربة، الأواخر منهم، أظهرت عدم إمكانية تجاهل دور القبيلة في المجتمع العُماني كأحد أبرز مكوناته، التي شكلت عاملاً مهماً في تحريك أحداثه^(٦٣).

الملحق (١)

أئمة اليعاربة في عُمان

- ١- ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي ١٦٢٤ - ١٦٤٩م.
- ٢- سلطان بن سيف بن مالك اليعربي ١٦٤٩ - ١٦٨٠م.
- ٣- بلعرب بن سلطان بن سيف اليعربي ١٦٨٠ - ١٦٩٢م.
- ٤- سيف بن سلطان بن سيف اليعربي ١٦٩٢ - ١٧١١م.
- ٥- سلطان بن سيف بن سلطان اليعربي ١٧١١ - ١٧١٩م.
- ٦- مهنا بن سلطان بن ماجد اليعربي ١٧١٨ - ١٧٢٠م.
- ٧- يعرب بن بلعرب بن سلطان ١٧٢١ - ١٧٢٢م.
- ٨- محمد بن ناصر بن عامر الغافري ١٧٢٤ - ١٧٢٨ (ليس من الأسرة اليعربية).
- ٩- سيف بن سلطان الثاني بن سيف اليعربي ١٧٢٨ - ١٧٣٢م.
- ١٠- بلعرب بن حمير بن سلطان (١) ١٧٣٢ - ١٧٣٨م.
- ١١- سلطان بن مرشد بن عدي بن جاعد ١٧٤١ - ١٧٤٣م.
- ١٢- بلعرب بن حمير بن سلطان (٢) ١٧٤٥ - ١٧٤٨م.

(٦١) السالمي، تحفة الأعيان، ج٢، ص ١٦٨.

(62) Peterson, Oman in The Twentieth Century, 1984, p 20

(٦٣) فاروق عمر فوزي، الخليج العربي، دار القلم، دبي، ١٩٨٣م، ص ٣٢٧.



الملحق (٢)

سلطنة عُمان: التقسيم الإداري

المصدر: أطلس العالم، بعناية نقولا زيادة وآخرين. مكتبة لبنان، بيروت، د. ت.

The Religio-Political groups in Oman during the ya'rubid dynasty (1034 - 1162 AH / 1624 - 1749 AD)

Farouk Omar Fawzi *

ABSTRACT

When the Ya'rubids took power in 1624, Oman was in a chaotic state. The Ibadi Imamate was weak, and the tribal leaders retained absolute control of their tribal areas. During the Nabahina muluk, the conditions were ever worse, and their supremacy was never challenged. The election of Nasir b. Murshid al- Ya'rubid resulted in uniting the tribes under central government and directing a successful operations against the Portuguese. However, during the period of later Ya'rubid Imams a controversy occurred among ambitious members of the ruling family, which led to a difference of opinion between the tribal leaders and the principal Ibadi 'Ulama'. The outcome was a civil war which ultimately led to Persian Occupation of Oman and the downfall of the Ya'rubid state. In conclusion it was obvious that the three factions which contested to again authority were: the ya'rubids, the Ibadi 'Ulama' and last but not least the tribe. The tribe was an important factor in the struggle for power, simply because it was needed by the other two factions, namely the ya'rubids and the Ibadi 'Ulama'.